المدرسة المستنصرية

Al-Mustansiryah.

هي تلك المدرسة الرصينة البناء ، المطلة على دجلة ، التي شرع في تشييدها في بغداد على جانبها الشرقي ، المستنصر بالله العباسي ، في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧م) واتمها في سنة ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) ، فجاءت آية بين مآثره الجليلة ، وسجلت له تقديره للعلم ، وحبه لرفعه . وقد مدح الشعراء منشئها ، وراحت الركبان تتغنى بها في الآفاق . وكانت موردا صافيا للطلاب ومرتشفي العلوم ؛ ثم دالت عليها الايام بالبؤس ، وانقلبت عليها بالشقاء ، فرأى الرحالة نيبهر (١) — ويا للاسف — مطبخها في سنة ١٧٦٦ م (١١٨٠ هـ) دارا لضرائب سماها Péage (٢) اي ضريبة المرور واظن انه اراد بذلك الكمرك . وقال عن قسم كبير منها انه خان يسمى (اوت ميداني خان) اي خان ميدان الحشيش ، وان الكل خراب يباب (٣) . ولا شك في ان في قوله عن خرابها كلها تطرفا ومغالاة ، فانه قال ببقاء بعضها ، ويدلنا واقع الحال على ان الخراب الذي قاله صاحب الرحلة هو عن مرافقها التي اندثرت ، ودخلت في خبر كان ، وعن الاهمال الذي صارت اليه . وهي لا تزال اليوم تنازع البقاء قوية عليه ، الى امد قد يكون بعيدا.

والذي نعرفه عن هذا المعهد الجليل ان القسم القائم الآن وهو المدرسة بنفسها كان يسمى في القرن الماضي «خان المواصلة او المصالوة» على لغة بعض العوام .

(١) لا اذكر بالافرنجية عناوين كتب الافرنج التي وردت اسماؤها قبلا في هذه المجلة ولا اعيد الاسماء التامة لغيرها من الكتب الواردة هنا .

(٢) من غريب متفقات اللغات كلمة « الباج » دانها في الفرنسية والتركية (التي هي من الفارسية) تكاد تكون بلفظ واحد ومعنى واحد . اما الفرنسية فمأخوذة في اصلها من رومية (لاتينية) معناها المقدم فيكون معناها : اجرة المرور او العبور (اي عبور القدم) واما في التركية المأخوذة من الفارسية فهي من اصل يختشيدن ومعناها العطاء والهبة والاجرة فيكون معناها العطاء عن العبور . وهذا من الغرابة بمكان عجيب . وصاحب محيط المحيط ذكر الباج فقال: « والباج ايضا الاتاوة تؤخذ على الغنم » اه . ولم ينبه على عجمتها كأنها في نظره عربية فصيحة مع انها لم ترد في كتاب عربي ، انما نقلها عن العوام الذين تلقفوها من الترك فاعلم هذا . (ل.ع)

(٣) ص ٢٤١ و ٢٤٣ من رحلته من الطبعة المذكورة هنا قبلا .

والظن الغالب على سبب هذه التسمية ان الموصليين كانوا قد اعتادوا ان ينزلوه اذا قدموا الى بغداد ثم امسى بعد ذلك مخزنا لالبسة الجيش ثم دارا للكمرك وهي الضريبة المعروفة التي كان يقال لها « رسومات » ايضا وهكذا كانت المستنصرية عند الاحتلال فلا تزال كذلك دارا للكمرك .

وقبل نحو خمسة وعشرين عاما ابتدأ الكتاب باستخراج نبذ من مطاوي الكتب عن هذه المدرسة الرفيعة الشأن ودبجوا فيها مقالات ونقلوا عنها ابحاثا اتحفوا بها مجلات المشرق (٥ [١٩٠٢] : ١٦٤ و ٩٦١ و ١٠ [١٩٠٧] : ٨٠ و ٣٩٠) ومجلة المجمع العلمي بدمشق (٤ [١٣٤٢ ـ ١٩٢٤] : ٤١) واليقين (٣ [١٣٤٤ ـ ١٩٢٥] : ٤٨٣) والزهراء (٣ [١٣٤٥ ـ ١٩٢٦] : ٢٥٤) وهذه المجلة (٥ [١٩٢٧] : ٣٤١ و ٥٠٥ وغيرهما) وملحق جريدة العراق المؤرخ في ١٥ تموز سنة ١٩٢١ ولعل غير ذلك مما لا يحضرني او اجهله. وحكى عنها بايجاز كتاب تنزه العباد في مدينة بغداد للمعلم (ثم الطبيب) نابليون الماريني (١) وخلاصة تاريخ العراق للعلامة شقيقه صاحب هذه المجلة ومختصر تاريخ بغداد للفاضل علي ظريف الاعظمي . وآخر ماورد عنها ماورده كتاب تاريخ مساجد بغداد وآثارها المطبوع وفيه قول الصفدي الذي اظنه منقولا من مجلة المجمع العلمي التي قالت انه نقل عن الصفدي عن ابن الساعي . وكانت وفاة ابن الساعي في سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) .

ومن الذين كتبوا عن هذه المدرسة من المستشرقين في ايامنا لسترنج وهوار وماسنيون وفيوله وهرتسفلد وذكرها سعادة المستر لنكرك (٢) في كتابه الانكليزي الذي ضمنه تاريخ العراق في القرون الاربعة الاخيرة ، ولقد اقتبس هؤلاء الكتاب من عرب واوربيين ما اقتبسوه واضاف على ذلك بعضهم شيئا عن الوقت الذي كتبوا فيه ومنهم من نقل الكتابات المنقوشة على جدران

(١) المطبوع في بيروت في سنة ١٨٨٧ .

(٢) المفتش العام للدخل في الوزارة المالية العراقية وهو يحسن العربية والتركية ويكتبهما وهذا اسم كتابه: Four centuries of Modern Iraq, by S. H. Londrigge. Oxford. 1925.

هذه المدرسة ومع هذا فانه بقي من تاريخها شيء في تضاعيف الكتب . ولم يأتونا عنها بشيء عن الحقبة الممتدة بين استيلاء هولاكو على بغداد في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وبين دخول هذه المدينة في قبضة العثمانيين في سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) إلّا ما اقتطفوه من رحلة ابن بطوطة وكلمة نقلوها عن نزهة القلوب بالفارسية لحمد الله المستوفي وهما من رجال القرن الثامن للهجرة .

وقد اكتفى كتاب المساجد المطبوع (ص٩٧) عن ذلك الزمن بالاسطر التالية :

« ولم تزل هذه المدرسة على ما كانت عليه في زمن منشئها الى ان حدثت حادثة التاتار ... فجميع ما كان في هذه المدرسة من كتب وفرش ومرافق قد نهبه جند العدو المخذول بل من الكتب ما رموا به الى دجلة قهرا لاهل العلم والدين . وبعد ان تولى بغداد من تولى عاد شمل المدرسة واهلها الى ما كان عليه ولم تزل تجمع الافاضل والفضائل الى ان دخل العراق في حوزة الدولة العثمانية ... » الخ .

وهذا كلام موجز عن ست وعشرين سنة مرت من فتح المدرسة الى استيلاء هولاكو على بغداد ومر بين ذلك وبين دخولها في يد العثمانيين نحو ثلثمائة سنة وفي ما نقله الكتبة لم نقف على خبر عنها عن تلك الايام إلّا ما سبقت الاشارة اليه . ولا نعرف في كل ما جاء آنفا من جمع على الاقل تراجم بعض مدرسيها إلّا ان نبذة في مجلة المشرق (٥ [١٩٠٢] : ٩٦١) جاء في صدرها : ان الاب انستاس استلها من كتاب مساجد بغداد ومدارسها للشيخ محمود شكري افندي الالوسي قالت إن في تاريخ ابن النجار وغيره تفصيل تراجم مدرسي المستنصرية مع من تخرج فيها من الاساتذة والائمة الاعلام . واذ كان هذا الخبر قولا مجملا . وكان تاريخ ابن النجار غير متداول في الايدي فقد سدل الستار على معرفة هؤلاء الشيوخ الافاضل . ولعل شيئا نزرا من تراجمهم في مختصر هذا التاريخ لابن ايبك الحسامي المعروف بالدمياطي (١) . وهب تاريخ ابن النجار نفسه بايدينا فانه لا يحوي إلّا تراجم مدرسي بضع من السنين لا غيرها لان المؤلف توفي

(١) مخطوط ذكره جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (٣ : ٧٥) قال ان نسخة منه في المكتبة الخديوية وان اسمه المستفاد من ذيل تاريخ بغداد .

في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) اي في السنة الثالثة عشرة من فتح المدرسة . ولا يبعد ان يكون في « غيره » خبايا ولعلنا نجد لم شعث من ذلك المطلوب ، في المخطوط الذي ذكره تاريخ المساجد (ص ٤٧ و ٤٨) وقال عنه انه مختصر ذيل تاريخ ابن النجار وانه من مخطوطات الخزانة النعمانية بجامع مرجان في بغداد ويا ليت الناشر عرفنا باسم الكتاب ومؤلفه ان امكن ذلك ويا حبذا لو وصفه . ونظرا الى ما جاء في هذا المختصر عن ذكر سنة وفاة العاقولي (كما ورد في كتاب المساجد ص ٤٧) وهو المتوفى في سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) فمؤلفه هو من رجال القرن الثامن للهجرة او بعد ذلك فله متسع لايراد تراجم كثيرين من مدرسي هذه المدرسة .

ولقلة ما كتب في هذه المادة عن لي ان اجمع شتات ما وقفت عليه من نتف اخبار هذه المدرسة واخبار نفر من مدرسيها وما وقع فيها من الحوادث ضاربا صفحا عما جاء في تلك المقالات والكتب القريبة الى الباحث المتتبع .

ولا شك ان ما اريد ان استنير به عن العصور التي مرت على هذه المدرسة سيكون ضئيلا وضئيلا جدا لكن ما اورده سيضيف صفحة جديدة الى تاريخها وان كانت صفحة صغيرة . وسيبين لنا انها فتحت بعد حادثة بغداد لهولاكو بمدة وجيزة لا تتجاوز ثلاث سنوات لو طالت والذي يخبرنا بذلك ما جاء في الحوادث الجامعة في انباء سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) وهو :

« وفيها رتب الشيخ عبدالجبار بن عكبر الواعظ مدرس طائفة الحنابلة بالمدرسة المستنصرية نقلا عن الاعادة بها . وحضر دروسه الصاحب علاء الدين [الجويني] والاكابر والعلماء وخلع عليهم » . اه .

مسجد الخظائر والمستنصرية

يرينا كتاب المساجد (ص ٣٦ و ٨٥) ان جامع الاصفية هو من مرافق المستنصرية لكنه لم يرو لنا المصدر وقال القنصل الفرنسي ريموند في بغداد عن طراز البناءين المذكورين انهما واحد وكان القنصل المذكور في بغداد في اوائل القرن التاسع عشر وحكى لنا عن جامع الاصفية — قبل ان يسمى بهذا الاسم — فقال (ص ١٥٦ و ٢١٨ من كتابه) « المولاخانه » تكية للدراويش

لا يفصلها من المدرسة المستنصرية إلّا طريق تفضي الى الجسر والظاهر انها منها . وقد اتصل بنا ان المولاخانه كانت جامعا لطلاب المستنصرية .

اما كلشن خلفاء فانه ينبئنا في اخبار سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) ان باني زاوية الدراويش المولوية هو محمد جلبي كاتب الديوان وكاتم الاسرار عند محمد بن احمد الطويل . وان محمدا هذا كان مستقلا في بغداد ومتغلبا عليها في تلك السنة وكانت هذه الزاوية في عهد مؤلف كلشن عامرة على ماقاله في كتابه الذي يمتد الى سنة ١١٣٠ هـ (١٧١٧ م) .

وقد عد اوليا جلبي (١) تكايا بغداد وفيها « المولويخانه » وكان صاحب هذه الرحلة في بغداد في سنة ١٠٥٨ هـ و ١٠٦٦ هـ (١٦٤٨ م و ١٦٥٥ م) .

وفي جهاتنا (ص ٤٥٩) ان في بغداد مواويخانه تطل على دجلة في موضع مبهج .

واذ قيل ان الاصفية من مرافق المستنصرية رغبت ان انقل كلاما عما كان يجاور هذه المدرسة آملا ان يعين ذلك من يبحث على استخراج شيء عن تاريخ جامع الاصفية الحالي .

جاء في الحوادث الجامعة في زيادة دجلة وغرق بغداد في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ما يلي :

« ونبع الماء من اساس حائط المدرسة المستنصريةومن دار «سنقرجا »زعيم خوزستان (٢) المجاورة للمستنصرية ومن مسجد الحظائر المعروف بام الناصر(٣) المجاور لهذه الدار ... »

واذ لم يفصح هذا الكلام عن موضع المسجد والدار أكان ذلك في شمالي المدرسة ام في جنوبيها فلا يمكننا تعيين موضعهما بالتدقيق لانه يجوز ان محلهما

(١) رحلة ٤ : ٤٢٠ .

(٢) ذكر ابن الاثير (١٢ : ١١٣) في حوادث سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) سنجر مملوك الناصر .

(٣) واسمها زمرد خاتون وتوفيت في سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) وهي مدفونة عند معروف الكرخي (ابن الاثير ١٢ : ٢١ و ١١٨) في حوادث سنة ٥٩٩ و٦١٢ .

كان في شمالي المدرسة او جنوبيها اي فوقها او تحتها . وسبب هذا الاحتمال اننا نجد مسافة قدرها نحو مئة متر تفصل بين المدرسة القائمة اليوم وبين شريعة المصبغة وهي باب الغربة (١) في العصر العباسي الذي قلت ان ما ليس بحريم دار الخلافة . وكان بلصق المستنصرية — على ما اخبرنا به ابن العبري (٢) — بستان يتنزه فيه المستنصر ويقرب من شباك مفتح (اي مفتوح) في ايوان المدرسة ينظر الى البستان وعليه ستر فيجلس وراء الستر وينظر الى المدرسة ويشاهد احوالها واحوال الفقهاء ويشرف عليهم ويتفقد احوالهم . ولكن لا ندري ايضا بأي جهة من الجهات كان هذا البستان . ويسوقنا الى الظن ان دار سنقرجا كانت في شمالي المدرسة ما جاء في كتاب المساجد (ص ٨٩) عن الصفدي عن ابن الساعي ان الدار المجاورة لهذه المدرسة « في الحد الاعلى » لم ير مثلها احد . ولا لادراك وصفها امد .

والظاهر انها هي الدار التي قال عنها كتاب الحوادث في اخبار سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) كما سيجيء ان السلطان غازان دخل المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة لها ثم عاد الى الدار المذكورة وبات بها . فالراجح ان هذه الدار هي التي ذكرها ابن الساعي لما بين اناقتها التي عرفنا عنها بقوله « لم ير مثلها احد ولا لادراك وصفها امد » وبين منزلة غازان ورفعته من الموافقة والوئام . واذا صح ترجيحي هذا اضحى من الاكيد او شبهه ان الدار المحكي عنها هي لسنقرجا فتكون الاصفية مسجد الخظائر المجاور لهذه الدار كما رأيناه . ولعل هذا المسجد هو جامع المستنصرية الذي ذكره كتاب الحوادث كما سيرد في سنة ٦٧٢ اذ قال في معرض كلام : « باب الجامع (كذا) المستنصرية » . وليس بغريب ان نرى هذا الجامع بعد ان كان يسمى مسجد الخظائر ان يسمى ايضا جامع المستنصرية بعد بنائها كما ان جامع الاصفية كان يعرف وقتا بالمولاخانة . وقد عرف صالح التميمي قدمه كما يفهم من ابياته (٣) ذلك القسم الذي حكى عنه ريموند المعاصر

(١) راجع هذه المجلة (٥ : ٤٥٣) وهو اول ابواب الحريم من جهة الغرب اي انه حده الاعلى. (٢) طبعة اليسوعيين ص ٤٤٢ .

(٣) ص ١٣٨ من هذه المجلة عن كتاب المساجد ص ٢٩ .

التميمي . ولنا مثال في تغيير الاسماء كما جرى في تسمية جامع القصر (١) . واما كون طراز بناء المدرسة المستنصرية والجامع المعروف بالاصفية واحدا فلا ينافي امكان ان تكون الاصفية مسجد الحظائر . وسبب عدم المنافاة قرب زمن ام الناصر المتوفاة في سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢م) من زمن بناء المستنصرية اذ لا تزيد المدة التي بينهما على خمسين سنة فلم يكن ثمة اختلاف في الريازة في وقت لابد ان تطورها — على فرض وجوده — كان بطيئا جدا . ونظرا لما اثبته فالاحتمال عن الجامع المعروف بالاصفية اليوم هو مسجد الحظائر احتمال غير بعيد ولكن البت في الامر هو غير الاحتمال . واظهار الحقيقة الراهنة يحتاج الى نصوص تؤيد هذا الرأي المشكوك فيه . ومن هذه الشكوك ان كتاب الحوادث يقول: دار سنقرجا المجاورة للمستنصرية ومسجد الحظائر المجاور لهذه الدار . ويقول ايضا ان غازان دخل المستنصرية من الدار المجاورة فيكون موضع الدار المذكورة بين المستنصرية وبين مسجد الحظائر ولكن يجوز ان نرتئي ان المؤلف لم يراع الترتيب بدقة وضبط كامل وخلاصة القول ان لم يكن جامع الاصفية مسجد الحظائر بنفسه فهو قريب منه جدا .

وهنا يحق للسائل ان يلزمنا بالجواب عما اوضح عنه كاشن خلفاء بقوله بان باني المولاخانه هو محمد حلبي . قلت الظاهر ان هذا الباني جدد في المسجد شيئا ليتخذه تكية للدراويش فقيل انه بنى المولاخانة كما ان هذا الجامع المعترف بقدمه قيل له الاصفية نسبة الى آصف المجدد بناءه الذي اريد به — على مايبين — داود باشا كما يستدل من البيت التالي للتميمي :

حتى اتى ذو العلى داود « آصفنا » من حل بالسبعة الاقلاك مفخره (٢)

واتمنى لو ان باحثا يجد مايسد بعض الفراغ — والفراغ واسع جدا — عن تاريخ هذه المدرسة الشهيرة فيضم الى لقاطه ما يرد هنا وما جاء في تلك الكتب والمجلات فيزف الينا تاريخا ثمينا عن هذا المعهد الجليل بعد تمحيص ما يطالعه وتدقيق النظر فيه فان مافي بعض ما كتب اغلاطا وهفوات وسهوا .

(١) انظر ص ٢١ من هذه السنة (٢) راجع ١٨٣ المذكورة

وعلى سبيل المثال نورد سقوط كلمة في ترتيب الحروف أثر وقوعها في التاريخ، جاء في المشرق (١٠ [١٩٠٧] : ٣٩٣ ح) في تاريخ كتابة منقوشة فوقه قال في آخرها : « وكان ذلك في سنة اثنتين وثمانين والف » ولما كان ذلك في تجديد وقع في زمن السلطان عبد العزيز من آل عثمان فلا يمكن ان يكون التاريخ الا سنة اثنتين وثمانين ومائتين والف . وقد ورد عفوا هذا التاريخ الصحيح في هذه المجلة (٥ [١٩٢٧] : ٥٠٧) دون ان ينبه على ذلك الغلط الذي قد يجر الكتاب اليه .

وهنا اشرع بالاقتباس والاقتطاف وما لا انسبه فهو منقول من الحوادث الجامعة .

« له تلو » يعقوب نعوم سركيس

كتاب تحفة الازهار ، وزلال الانهار ، في نسب الائمة الاطهار

لمؤلفه السيد ضامن بن شدقم بن علي بن الحسن النقيب الحسيني المدني المتوفى في القرن الحادي عشر للهجرة .

وهو في سبعة مجلدات . منه نسخة في خزانة الشيخ علي آل كاشف الغطاء بخط السيد حسون البراقي المعروف . رتبه مؤلفه على ابواب ، وفصول ، واصول ، وأيكات ، وأسباط ، ودرجات ، وهكذا الى الساق والقدم ذكر في الجزء الثاني منه نسل الامام الشهيد ابي عبد الله الحسين (ع) وفيه جملة فوائد رجالية وتاريخية . وقد وقع الكتاب في زهاء (٧٠٠) صفحة بقطع كبير .

اوله : الحمد لله المتفضل المحسن الكريم الوهاب . وقد نقل عنه المحدث الشهير الحاج ميرزا حسين النوري ، صاحب فصل الخطاب في كتابه (دار السلام) وتاريخ الفراغ من بعض اجزاءه سنة ١٠٥٥ انتهى .

وبيت شدقم بيت علم وفضل في القرن العاشر والحادي عشر منه : ضامن المذكور ، ومنه السيد حسن بن علي بن شدقم تلميذ والد البهائي له ذكر في أمل الامل ، والسلامة . ومن مؤلفاته زهر الرياض وزلال الحياض في السير والتواريخ . نقل عنه المجلسي الشهير صاحب البحار ومنهم محمد بن الحسن بن علي بن الحسن ابن علي بن شدقم ولد في دكن ومات بمكة .

زنجان (ايران) ابو عبد الله الزنجاني